Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 24:3 (1989

منهج البحث العلمى فى القرآن الكريم

حسين آتاي

واقع المسلمين تجاه القرآن الكريم:

فى العام ١٩٨٥ ذهبت الى المانيا الغربية رئيساً على وفد من وزارة المعارف التركية لعقد معاهدة ثقافية مع الألمان فى الدروس الدينية الاسلامية فى مدارس المانيا الغربية فى ايالة (مقاطعة) وستفاليا الشمالية واثناء ذلک زرنا بعض الصفوف الدينية الاسلامية فى مدرسة ابتدائية حيث كان المدرس تركياً .

وأعجبنى منهجه فى تدريس الدين . وعندما دخل المدرس الصف، اخذ السجادة وبسطها على الأرض . ثم فتح المسجلة (آلة التسجيل) التى اخذت بدورها تؤذن للصلاة . ثم سأل المدرس التلاميذ : ماهذا الذى تسمعونه ؟ فاجابوا بانه الأذان . ثم سألهم : ما هو الأذان ؟ فاجابوا بانه اعلان لوقت الصلاة . ثم سألهم : ماهى الصلاة ؟ فاجابوا بانها عبادة مفروضة على المسلمين . ثم سألهم : من قال انها عبادة مفروضة ؟ فاجابوا بان الله تعالى قال ذلک . ثم سألهم : من قال انها

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

عبادة مفروضة ؟ فاجابوا بان الله تعالى قال ذلک . ثم سألهم : من این تعرفون ان الله تعالى قال ذلک ؟ فاجابوا بانها مكتوبة فى القرآن الكريم . ثم سألهم : ماهو القرآن الكريم ؟ فاجابوا بانه كلام الله تعالى .

ثم قال المدرس ، حينئذ ، اذا اردنا ان نعرف ماذا يقول الله تعالى وماذا يطلب منا ان نفعل ، فعلينا ان نرجع الى القرآن الكريم لنفهم كلام الله وخطابه لنا . فاجاب التلاميذ بالايجاب .

وقد اعجبنى هذا المنهج الذى كان فيه تفصيل واف لخصته لاجعله مقدمة لكلامى وبحثى هذا حتى يعرف الصغار والكبار ويعتادوا الرجوع الى القرآن الكريم فى وقت الحاجة وفى كل مناسبة ، اذا ارادوا ان يعرفوا الحكم عندالله تعالى . وياللأسف الشديد كم ابتعدنا عن هذا المنهج العلمى الصحيح!.

واحب ان اسأل نفسى مع الآخرين من المسلمين هل نرجع الى القرآن الكريم لنتفهمه ونتفقه فيه فيما نعلم لوضع معارفنا وثقافتنا الموروثة والمتقلدة على ميزان القرآن الكريم من جديد ، وفيما لانعلم ان نستنبط منه احكاماً لمشاكلنا الحديثة .

ويمكن لى الاجابة على هذا السؤال بناء على تجربتى الشخصية لمدة خمس وثلاثين سنة . بان المسلمين لايقرأون القرآن للفهم والاتباع لانه يكفيهم مافهمه السابقون الاولون وانما يقرأونه ويسمعونه لتلتذ اذانهم بصوت القارئ ويخرون صامتين ساكتين ومن ثم يرجعون الى ماكانوا عليه وكأنهم لم يسمعوا شيئاً . وهذا هو حال المسلمين دون استثناء من شعب لآخر . وان كان من يدعو الى الرجوع الى القرآن الكريم ولكن هل يرجعون بفكرة جديدة لفهم جديد ام لا ؟

فان القرآن الكريم اصلح المؤمنين الاولين فلماذا لايصلح المؤمنين الحاضرين ؟

الاجتهاد هو الرجوع الى القرآن

عندما كنت طالباً فى كلية الشريعة فى بغداد كنت اتـردد الـى العلماء والمشايخ ادرس عندهم علوما وكتباً اضافية بعيدة عن منهج الكلية او تكملة للكتاب المقرر فى منهج الكلية . واذكر اننى دخلت مرة على الشيخ محمد قزيلجى امام جامع البشر الحافى رحمه الله ، وكان عنده رجل لم اعرفه . وبعد ماخرج الرجل قلت للشيخ ان العلمـاء لايقرأون القرآن . واجابنى الشيخ بقوله : ,,صحيح ،، فان هذا الرجل الذى خرج الآن وهو من كبار العلماء . ,,فسألته : هل تقرأ القـرآن الكريم ؟ فقال : لاأريد ان اكون مجتهدا ولذلک لا اقرأ القرآن ....،، الى هنا قول الشيخ .

وهناک امثـلة اخـرى كثيرة ولانطيل الكلام بها . وفى الحقيقة ، ان مثل هذه الوقائع والتجارب توضح وتبيـن لنـا الذهنيـة المحاكمة والموجودة بين العلماء الذين ورثنا علومهم وذهنيتهم وهم جيل ابائنا واجدادنا القريبين والبعيدين . واكثر من يقرأ القرآن هم العوام . واما اذا كان من العلماء من يقرأ القرآن الكريم ، فانما يقرؤه مثل العوام حيث لايقفون قليلا ليفهموا معناه وكما ان العوام يقرأونه للعبادة ، والتعبد دون فهم معناه يعـنى لتلفظ كلماته بلا تدبر مايقول . وكذلک بعض العلماء كأنه قد شرط ان القراءة اذا كانت من دون فهم كانت عبادة ، اذا فهمت خرجت من ان تكون القراءة عبادة ؟ ولذلک فرقوا بين قراءة القرآن بنية الدعاء وبين قراءته بنية العبادة ولكن لم يبينوا فى ايتهما شرط الفهم .

اصناف المسلمين المثقفين

اننا نرى المثقفين من المسلمين من شعوب مختلفة ينقسمون الى اصناف :

الصنف الأول : المثقفون بثقافة علمية معاصرة مستندة الى تجربة واختبار يحاول البعض ، ولو احياناً الرجوع الى القرآن الكريم ويربطوا معلوماتهم فى اختصاصاتهم بالقرآن ليفهموه و ليفسروه حسب ماوصلت اليه معرفتهم الحديثة . وكثيراً ماينفعون الاسلام والمسلمين بمحاولتهم هذه، ويظهرون معجزة القرآن العلمية . ولهم حرية التفكير والتفسير ولايتأثرون بأفكار مسبقة ولهم مجال واسع ، ويؤدون واجبهم الدينى بحسن النية . لانه ليس لهم تقاليد واعراف وعنعنات موروثة علمية فى اختصاصاتهم ولهم الحرية فى ذلک .

الصنف الثانى :

المثقفون بثقافة اسلامية تقليدية او بتعبير آخر العلوم الاسلامية المدونة طوال العصور الماضية .وعند ما يقرأون القرآن أو يراجعونه ، يفهمونه ويفسرونه على ضوء آراء وافكار العلماء والأئمة السابقين فى التفاسير او بين الكتب الفقهية والكلامية والاخلاقية ولايحاولون ان يفهموا القرآن ويفسروه بصورة اخرى . وليس معنى ذلک انهم لايستطيعون ولكن يرون انفسهم دون المرتبة فى الفهم ممن سبقهم . ولاندرى هل يستطيعون ذلک أم لا ؟ لأننا لم نرهم قد استعملوا قدرتهم العلمية ومقدرتهم الذهنية حتى نحكم بأنهم لم يستطيعوا . وليس كل من يحاول ذلک ينال بغيته . ولكن المهم اجازة وقبول مشروعية المحاولة . لأن جوازها سيعطى المجال لمن يستطيع أن يفهم القرآن بصورة اخرى ، وعلى أقل تقدير، فان الذى يحاول ذلک يخرج عن ربقة التقليد ، وان لم يأت بجديد . مثلا فان العلماء السابقين لم يكتب لهم النجاح فى حل مشكلة التجارة فى مسألة الربا ، والآن لا يرضى المسلمون بحلول موجودة فى الكتب الفقهية المستندة على المواضعة ، ومع ذلک لايسعون لايجاد حل لها بدعاً من زمان الرسول فى تحقيق الأوضاع

الاقتصادية والتجارية والاجتماعية والدينية تحت أضواء العلوم الحديثة تجاه المشكلات والشروط المتغيرة . حرة طليقة خارجة عن كتب الفقه.

الصنف الثالث :

من العلماء والاساتذة الذين اطلعوا على الثقافة الحديثة المعاصرة قد عرفوا مداخلها وفهموا مضامينها . وكذلک قد أحاطوا علماً بالثقافة الاسلامية الموروثة وعرفوا مقاصد الشريعة وادركوا مغزاها وجمعوا بين الثقافتين يسعون حثيثا لادخال الدين الاسلامى فى الحياة اليومية بالدعوة الملحة الجادة الى الاجتهاد وابداع الآراء فى حل المسائل والمشاكل فى فنون الحياة الفردية والجماعية والدولية ويدعون الى القيام بدور الأئمة العظام والمجتهدين الكرام فى الصدر الأول للاسلام وهؤلاء قلة قلائل ولا صوت لهم ولاتأثير .

الرجوع الى القرآن مشروط بحرية الرأى والفكر :

وذلک لايتم ولايتسنى لأى عالم ومفكر الا بالرجوع الى مصدرين اصليين للدين الاسلامى مباشرة ويشربون من منهلهما ومن ينبوعهما الماء العذب الفرات دون مروره من خلال الانابيب الفكرية واللسانية وبلا عبور من مراحل العقول البشرية طوال الاربعة عشر قرناً .

بدأت دعوة الرجوع الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة منذ عصرين فى مختلف الاقطار الاسلامية ، الا أنه لم يكتب النجاح التام للدعاة لأسباب معروفة او غير معروفة الا فى مجالات ضيقة . ولذلک ترى الناس بعد العصرين كأنهم فى البداية . وندعو نحن كذلک الى الرجوع الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ولكن بدعوة اكثر حزماً وأشد عزما مما سبق وبدعوة علمية وعملية معاً واسعة النطاق وليست نظرية فحسب .

وهذه الدعــوة تتضمن ترك التعصب للرأى وللمذهب والتمسك بمبدء البحث الحر المستقل عن الآراء المسبقة . لأن الرجوع الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يضمن لنا مبدأين مهمين :

اولا : يعطينا حرية التفكير ويوسع زاوية الفهم والادراك للدين الاسلامى بما فيهما من مبادئ عامة وشاملة للكون الجمادى والمجتمعات البشرية الحية .

ثانيا : يزودنا بموازين ومعايير لتقويم الثقافتين الاسلامية والمعاصرة على السواء . ونفهم بها مدى صحة الثقافة الاسلامية واصابة استنادها إلى المصدرين الاصليين ودرجة ابتعادها وزاوية انحرافها عنها . وكذلك نحاكم الثقافة المعاصرة بوضعها على القسطاس الاسلامى وندرك اخطاءها ومفاسدها من صوابها .

فان الابداع فى الفنون والصناعات وابتكار الأفكار الجديدة لايتحقق الا باحتكاك العقول وتبادل الآراء المختلفة والمعارضة . كما أنه لاميلاد لمولود اذا لم يكن هناك تلقيح وهو يكون بين الجنسين المختلفين .

يجب على المسلمين ان يفكروا فى تقويم ثقافتهم الموروثة ويميزوا بين ماهو صحيح فيها وبين ما هو خاطئ من دون التحيز . وكذلك ينبغى لهم ان يحاكموا الثقافة المعاصرة ويبينوا ماهو صالح للأخذ منها وبين ماهو فاسد للرفض دون الادانة ، بغير بحث ونظر صحيح .

ثم يأخذون ماهو صحيح من الثقافة الاسلامية ويصححون بها ماهو فاسد فى الثقافة المعاصرة . ويأخذون ماهو صالح فى الثقافة المعاصرة للأخذ ويصلحون بها ماهو خطأ فى الثقافة الاسلامية . وبهذه الصورة يتم التزاوج ويبدأ الميلاد والانتاج الصحيح والصالح السليم .

ومن دون معرفة تامة للثقافة الاسلامية ومن دون احاطة بالثقافة المعاصرة ومن دون التمييز فيهما بين الصالح والطالح وبين الحسن والسيئ لايكون هناك ازدواج بين الاصحاء ولا مولـود سالـم البنية والروح معا . وهذا هو سنة الله الكونية والاجتماعية .

الخطأ البارز منذ العصرين هو ان المسلمين اتخذوا كل ماهو فى ماضيهم من الثقافات والمعارف صحيحة ولم يقبلوا النقاش فيها ولم يتفكروا فى احتمال الخطأ فيها ودافعوا عنها ككل دون التمييز بين الصواب والخطأ . ولم يروا الحاجة الى التقويم من جديد، ولـذلک اصطدمت ثقافة الاسلام الخاطئة بثقافة المعاصرة الصحيحة واضطرب الشرق والغرب معاً . لان الغرب يحارب الثقافة الاسلامية الخاطئة على انها ثقافة اسلامية صحيحة ويحارب الشرق الثقافة الغربية دون التمييز بين صحيحها وسقيمها . ولكن هذا امام الهجوم والاعتراضات الواردة من الأعداء خارجاً وداخلاً . الا أنه اذا جاءوا يتكلمون فيما بينهم ، تراهم كل حزب بما لديهم فرحون . ينقض كل طرف مايقوله الآخرون دون قيد وشرط لانهم يتعصبون للرأى والمـذهب . يقول الاول للآخر : هم ليسوا على شيء والآخـر يعيد نفس القول ويقول : هم ليسوا على شيء. وهم يقرأون الكتب ولايقرأون القرآن الكريم لتجديد المعـرفة والايمان بتوحيد الله الذى يشمل توحيد كل عمل وغاية فى الحياة ، بحيث يكون كل عمل وغاية فى الحياة اليومية ليل نهار متوجها الى الله الواحد الاحد .

اتخاذى الدعوة الى الرجوع الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الصحيحة سندا ومتنا ، وظيفة دينية اصلية مهمة منذ سنوات لاقتناعى واعتقادى ـ ليس اعتقادا نقلياً ـ بالفعل والمشاهدة والتجربة الشخصية على ان الذين دعوا الى الرجوع الى القرآن لم يرجعوا الـيه ولـذلک

لم يتحقق الاصلاح فى الامور الاجتماعية والسياسية والحقوقية (الفقهية) وغيرها .

وكثيراً ماذكر القرآن الكريم لانه اصل الاساس الاول والثانى هى السنة وهى داخلة ضمن القرآن الكريم . والذين يسمون انفسهم انصار السنة ـ وهناک فرق بينهم وبين اهل الحديث ـ الأولون لايذهبون الى القرآن وانما يقفون فى السنة للمسائل التى يتناولونها للبحث والحكم . ويصبح القرآن مُجانَباً من قبلهم ، هذا اولا . والامر الثانى عندهم يأخذون صحة الحديث سندا ولاينظرون الى صحة المعنى والمتن الا نادراً ، وذلک ايضا بسبب موجود فى ضعف السند . وثالثاً يتمسكون بالمعنى اللغوى واللفظى للحديث ويعتصمون به ولايتناولون الحديث كفقيه .

وعلى هذا لايجوز ولاينبغى لهم ان يصدروا حكما . وانما لهم حق تصحيح السند فقط واما تصحيح الحديث متنا ومعنى فيرجع الى الفقهاء. والفقيه عليه ان يسأل اهل الحديث عن سند الحديث ثم يشرع فى فقهه وفهمه . وهذا هو اعطاء الحق لأصحاب الاختصاصات وتسليمه لهم .

وتحقق عندى شيئان من الرجوع الى القرآن الكريم والسنة الصحيحة سنداً ومتناً :

(أ) فى حياتى العلمية للدراسة العالية تدرساً وتدريساً اكثر من اربعين سنة شاهدت أن فى القرآن حلولاً لبعض المشاكل المعضلة من اجتماعية وسياسية وحقوقية(فقهية) وغيرها بصورة صريحة وسهلة المعنى . وعلى ذلک ينبغى على الفقهاء المحدثين والعلماء المفكرين أن يرجعوا الى القرآن حتى فى المسائل المقتولة بحثاً فى كتب الفقه المدوّنة من المذاهب

المختلفة ، بحيث كأنهم لم يدرسوها ـ لاشک ينبغى ان يدرسوها ـ وينـظروا الـى تلک المسائل مـن جديد بنظـرة قرآنية خالصة ونظرة واقعية حية موجودة فى المجتمع . وسيجدون الحل بأيسر طريقة .

(ب) عند ما بدأت العلوم المختلفة تتطور عند المسلمين وتتفـرع وتتخصص ، اخذ كل علم من الآيات والأحاديـث ماوجدهما مناسباً ومتعلقاً بالموضوع وهكذا توزعت الآيات والأحاديث بين العلوم المختلفة . اصبحت آية فى الفقه وآية فى الأخلاق وآية فى السياسة وآية فى الاجتماع وآية فى العقيدة . ووقع هذا فى الحديث ايضاً . واصبح كل من ينظر الى القرآن ينظر تحت تلک العناوين او بزاوية ذلک العلم او العلوم .

ولكن الحق ينبغى ان يقال اذا رجع الفقيـه الـى القـرآن الكريم ناسياً ماقرأه من الفقه ـ مؤقتاً ـ وينظر فيه قبل توزيعه على العلوم المختلفة سيجد آية او حديثاً يحل مشكلته الفقهية او السياسية او الاجتماعية او غيرها بسهولة وسيندم لماذا لم يقرأ القرآن سابقاً بهذا التلهّف والنيـة ، الا أن تلک الآية او الحديث قد وضعت فى مكان آخر فى علم آخر مثلا فى الاخلاق وربما كان ذلک صواباً فى القديم ولكن ينبغى أن يوضع الآن فى الفقه لحل مشكلة فقهية وهكذا العمل فى كل مسألة .

كثير من الناس فى الاقطار الاسلامية يتكلمون وكأنهم يصيبون فى القول وتشخيص الأمراض الاجتماعية وغيرها ولكن قليل وقليل جدا من يقوم بالعمل . ويقولون مالايفعلون . وهذا ايضاً من مخالفة القرآن . يعرفون الآية فى القرآن ولكن لاعن ايمان متغلغل فى مشاعرهم من الصغر وهناک اساليب متنوعة لتحريض الناس على اكثار القول دون

العمل لإضلال المسلمين علماً او غير علم ، قصداً او غيد قصد . والغزو الفكرى يدعم هذا الوضع بصورة لاهثة جداً .

ولذلک هناک حاجة ملموسة ومحسوسة الى ايجاد ذاتية اسلامية وشخصية مسلمة للقيام بتقدير درجات الحضارات الانسانية وتقويم الثقافات والمعارف البشرية . وذلک يمكن اذا رُبّى الناس تربيةً اسلامية مبنية على قوانين الله تعالى التكوينية والفطرية وسنة الله تعالى الاجتماعية والروحية ، فحينئذ يخرج من بينهم أناس يصبحون قادة اختراعات الصناعة والسابقين الاولين فى ابداع الآراء وابتكار الحلول الجديدة لشؤون الحياة المتغيرة . وهذا بالدور يحتاج الى امرين مهمين وهما :

اولا : المعرفة .

والثانى : المنهج .

لكن بما ان المعرفة ، اذا استندت الى المنهج تكون اكثر ضمانا للعصمة وابعد من الخطأ ، فالمنهج يتقدم على المعرفة الصحيحة من جهة ضمان صحتها ولاضير ان يكون المنهج نفسه يحتاج الى المعرفة ، لأن المنهج عبارة عن جمع المعلومات والعينات ، ثم تصنيفها ثم تمييزها ثم الاختيار منها . وفى الاخير تصبح المعلومات معرفة صحيحة لان المنهج علم وأول خطوة فيه .

والقرآن الكريم والذين آمنوا به فى اليوم الاول الى يومنا هذا ، يدعون الناس الى القرآن الكريم وفهمه . وهذا هو الحق . لانه جاء لإصلاح الناس . والاصلاح يبدأ من المحاكمة الذهنية والمعارف الانسانية . ولانه يبين لهم طريق الحق ويظهر الباطل . والأهم انه يوضح لهم كيف يميزون بين الحق والباطل . وهذه الكيفية هى النهج فى اكتساب المعارف والمنهج فى استنتاج المعلومات الصحيحة . لأن المعلومات

لاتكون علما اذا لم يستند إلى المنهج والمنطق المنسجم .

وحث الانسان على الرجوع الى القرآن الكريم ، دون هدى ، ليس كافياً لاستفادته منه . ومن الضرورى ان يبدأ بالمعرفة بمنهجها الذى يوصل الى العلم الصحيح والمعرفة الحقة . ومن دون المنهج يضيع الانسان بين المعلومات الابتدائية ويغيب عن نفسه فى العينات المتراكمة . اذ المعارف والمعلومات تكتسب صفة العلمية بالمنهج . ويبدأ الاصلاح بامرين : بالعلم الصحيح وباتباعه فعلا : تطبيقه .

رسالة القرآن الكريم

اذا سأل سائل وقال ما الذى اتى به القرآن الكريم الى البشرية ؟

لايمكن ان يجاب هذا السؤال الا بعد فهم القرآن وتفقهه جيداً.الا أنه يستطيع كل احد ان يجيب على هذا السؤال حسب اهتمامه واختصاصه بموضوعه . ويمكن كذلك لانسان واحد أن يجيب بأجوبة مختلفة وبوجهات النظر وبزاويا متنوعة حسب غايته وقصده ومطلبه وجلب أنظار الناس الى موضوع معين .

فلنحاول نحن فى هذه المرة أن نجيب على هذا السؤال للفت الأنظار الى موضوع مهم وهو منهج البحث العلمى في القرآن الكريم . وفى نظرنا أن الجواب على هذا السؤال ينبغى ان ينطلق من نقطة هامة وهى أن القرآن اتى للبشرية بمنهج للمعرفة الصحيحة هى التى توجه الحياة كلها وهى منهج لها . وهذا المنهج ابدى لايبلى . ويمكن لنا ايضاح ذلك بوضع القواعد المستنبطة فى الآيات وبيان المنهج وطرق البحث فيها عن الحق كالآتى : ـ

الطريقة ـ المنهج

كل مؤمن بالقرآن يعتقد أن القرآن الكريم هداية ودليل . لأنه وصف نفسه بأنه ... هدى للمتقين (١) ... هدى وبشرى للمؤمنين (٢) ...

هـدى للناس (٣) وأكد القرآن على أنه هداية وعبارة عن الهداية فحسب فى آيات متعددة وموزعة فى ثنايا السور وآياتها . والهداية هى الارشاد وإراءة الطريق الحق . وهنا يتضح لنا وجهان فى الدلالة على الطريق الحق .

(أ) الوجه الأول هو آخر الطريق والى مايوصل اليه الطريق بمعنى النتيجة المطلوبة والغاية المنشودة فى نهاية المطاف هو الطريق الحق . والعلماء قديماً وحديثاً قد كتبوا وألفوا كتبا فى هذه الناحية من جهة الغاية المنشودة وهى اولا توحيد الله تعالى والايمان به وبما آتى به القرآن الكريم نفسه ثم العمل بموجب الايمان من الأعمال الصالحة ، وأسهبوا فى الكتابة فيها كذلك .

(ب) الوجه الثانى هو كيفية الوصول وكيفية السير فى الطريق الموصل الى الغاية والنتيجة المطلوبة وهى الهداية بمعنى كيفية الدلالة وإراءة الطريق وانارته .

ونحن سنحاول أن نستدل بالهداية على كيفية نشدان الطريق المستقيم وهو المنهج المعبر عنه فى العصر الحاضر من الحضارة والثقافة الانسانية العالمية . واصبح البحث عن المنهج علماً مستقلاً بنفسه ونأخذ الهداية على انها هى المنهج فى التعبير القرآنى ، وان كانت كلمة المنهج قد استعملت فيه على مايبدو لأول وهلة للقارئ فى قوله تعالى : ,,**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ،، (٤) اليست الهداية انارة الطريق والارشاد الى الحق والصراط المستقيم وهو المنهج وهو كيفية السير .

منهجية المنهج :

والعلماء المعاصرون يكتبون فى المنهج والمناهج كثيراً ويطيلون فيه واصبح المنهج طريقاً خاصاً لكل علم واختصاص . فكل من يريد

أن يدخل فى بحث او يتخصص فى علم من العلوم أو يكتب فى موضوع من المواضيع ، فعليه قبل كل شيءأن يثبت ويضع نصب عينه منهجاً لطريق بحثه وينتهج نهجا خاصاً بموضوعه ليصل الى نتيجة سالمة من النقص والتقصير بالتفصى والبحث .

ومع ذلک قلما نجد من كتب فى الهداية على انها منهج بحث للحياة او منهج الحياة . واننا نرى فرقاً بين منهج الدعوة او اصول الدعوة وبين منهج العلم او المنهج العلمى فى القرآن الكريم . وان كانت الهداية بمعنى الارشاد الى الطريق السوى والدليل عليه وانارته وهى بهذا المعنى ايضاً هى كيفية الارشاد وكيفية اراءة الطريق . والكيفية والاسلوب هما المنهج فى لغة الناس اليوم . والقرآن الكريم يرينا الطريق وكيفية المشى فيه والكيفية مهمة جداً مثل المشى نفسه . كما يقول احد الاساتذة : الصلة والرابطة بين مفهوم المنهج العلمى وبين مفهوم العلم ومفهوم البحث وثيقة قوية حيث لاوجود للعلم ولا للبحث العلمى بدون المنهج العلمى . (٥) وأصبحت معرفة المنهج علماً قائماً بذاته ، يمكن أن يطلق عليه منهجية المنهج يعنى كيفية انتهاج المنهج .

وقديماً قال الامام الغزالى شيئاً يماثل هذا : وهو : تلقين الدليل شيءوالاستدلال بالنظر شيءآخر بعيد عنه (٦) . وفى الحقيقة الاستدلال كيفية اقامة الدليل وهو ليس غير الانتهاج واتباع منهج .

والقرآن الكريم ارسل الى الانسان هداية ودليلا له فى كل اعماله وتفكيره وهو يشتمل على كل مايحتاج اليه فى حياته ، من طلوع الشمس الى طلوع الشمس ، يومياً واسبوعياً وسنوياً وعُمْرِيّاً . لأنه يقدم للانسان منهجاً ليس فى العقيدة والتفكير فقط ولكن فى كل حركاته وسكناته وقيامه وقعوده ونومه وراحته ليلاً ونهاراً . والقرآن يشمل كل

هذا بمنهجه ومنهجه منهج علمى وموضوعى وربانى بمعنى التعبير القرآنى هو فطرى . اى طبيعى يخاطب العقل السليم ، وانه لايفرق عن المنهج العلمى المعاصر والمنهج العلمى فى الأجيال الغابرة .

ومن المهم ان نفيد هنا ان المنهج القرآنى والمنهج الذى استعمله العلماء قبل القرآن ، والمنهج الذى استعمله المسلمون فى تشييد حضارتهم اتباعاً للقرآن الكريم ، والمنهج الذى يستعمله علماء عصرنا هو نفس المنهج فى الأساس والاصول لاتغير فيها ولااختلاف فى اصوله ولا فى اسسه . وبتعبير آخر او اشمل لاتبديل فى منهجية المنهج وانما التغير والاختلاف يحدث فى تطبيق المنهج حسب المواضع والوسائل والادوات والآلات والاساليب المستحدثة المستعملة المختلفة.

ويعبر عن هذا الدكتور عمر الشيبانى بقوله : المنهج العلمى ليس قاصراً فى تطبيقه على العلوم الطبيعية بل هو قابل للتطبيق ايضا فى مجال العلوم الاجتماعية . وهذا لاينافى أن المنهج العلمى الذى يطبقه العالم الاجتماعى قد يختلف فى بعض جوانبه عن المنهج الذى يطبقه العالم الطبيعى (٧) . والعلماء الذين يكتبون فى منهج البحث والعلم يتفقون على أن المنهج فى الاصل والاساس لايختلف بين العلوم الاجتماعية والعلوم التطبيقية والطبيعية . ولكن يختلف استعمال واستخدام المنهج بين الموضوعات وحتى العلوم الطبيعية نفسها . (٨)

المنهج عام و شامل :

ولذلک اذا تحققنا وتبينا المنهج العلمى عامة وقارناه بالمنهج العلمى فى القرآن الكريم نرى أن القرآن الكريم اذا امكن ان نقول هذا تاريخياً ، واذا لم نعتبر منطق أرسطو منهجاً (٩) هو الكتاب الاول الذى افاد ووضع وبين اسس المنهج العلمى وهو لايتغير منهجياً ، كما نرى المنهج فى العلوم الحديثة لم يتغير شىء منه الا بالتفاصيل التطبيقية .

واذا اطلقنا لفظ المنهج ، نقصد بذلك المنهج فى العلوم الطبيعية والتطبيقية وكذلك المنهج فى العلوم الاجتماعية . ويقصد بالعلوم الطبيعية جميع العلوم التى تتناول بالدراسة الطبيعية الجامدة والطبيعية الحية وذلك كعلم الفيزياء وعلم الكيمياء وعلم الجيولوجيا وعلم الفلك وعلم الحيوانات وعلم النبات وما الى ذلك . ويقصد بالعلوم الاجتماعية العلوم الانسانية وهى جميع العلوم التى تتناول بالدراسة الظواهر والأحداث والمؤسسات والنظم والعادات والتقاليد الاجتماعية كعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة والقانون والآداب وعلم النفس والتربية (١٠) ونضيف الى هذه العلوم الفلسفة والعقائد والمنطق لان هذه العلوم الاجتماعية تتعلق بالانسان وتدرسه وتدرس العلاقات والمناسبات والروابط بينه وبين اخيه الانسان وبينه وبين خالقه وبينه وبين مجتمعه ويعنى ذلك انها تجمع بين كائن حى وكائن حى استناداً إلى مايصدر من هذه الأحياء من أفعال وحركات منبعثة عن ارادتها الحرة التى هى خارجة عن الكائنات الطبيعية . والعلوم الاجتماعية خاصة بالانسان ولذلك تسمى بالعلوم الانسانية .

اضف الى ذلك أن الوصول الى النتيجة الصحيحة المطلوبة فى العلوم الاجتماعية ليس مؤمناً عليه مثل العلوم الطبيعية . ومن جملة الأسباب التى تجعل المادة (الموضوع) والظاهرة التى تعالجها وتدرسها العلوم الاجتماعية اكثر تعقيداً من المادة والظاهرة التى تدرسها العلوم الطبيعية . لأن العلوم الاجتماعية تهتم بالانسان الذى يعتبر اكثر الكائنات الحية تعقيداً كفرد أو كعضو فى جماعة ومجتمع . وهو فرد مستقل له رأيه وتفكيره وارادته واعتقاده وعواطفه ولايتأتى ملاحظته على المستوى الفيزيقى وحده بل لابد من ملاحظة اضافة وجهة نظر من اجتماعية أو نفسية أو طبيعية . وفى الحقيقة ان الانسان

مزيج وخليط مركب من المادة الجامدة ومن المادة الحية العضوية ، ومن روح إلٰهى وهو انسانيته وبها يتميز عن الكائنات الحية الأخرى . ودراسة الانسان تستند الى هذه العلوم التى تدرس هذه الأنواع الثلاثة من الكائنات .

العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية :

فان عنصر الارادة تتدخل فى العلوم الاجتماعية وتؤثر فى عدم الوصول الى النتيجة الحتمية المطلوبة . ومع المؤثرات فى ارادة الانسان من التقاليد والاعراف ، والتربية والمجتمع والثقافة ، فان الارادة حرة فى ذاتها وتتمكن الانفلات من هذه التأثيرات يعنى فان كان الانسان تحت تأثير الانفعالات وتفاعلات وعلاقات مختلفة كثيرة وينبغى للباحث ملاحظتها ولكن لايؤمن لها الانحراف والانزلاق عن سواء السبيل .

ولذلک يتراءى الشىءللانسان الواحد حقا من جهة وزاوية ينظر منها الى المشكلة ويبدو للانسان الآخر باطلاً من جهة اخرى . وكثيراً ماتظهر للانسان الواحد احتمالات مختلفة ومتنوعة من جهات مختلفة ويحار فى ترجيح احداها على الأخرى اذا لم يستعمل او لم يعرف كيف يستخدم المنهج الصحيح بالدقة والضبط ليصل الى ماهو صواب . وعدم معرفة المنهج محل مزلة أقدام الناس .

فعلى سبيل المثال تعطى فى الاجوبة أنواع الاحتمالات أى فى الاختبارات المحدثة خمسة أجوبة لسؤال واحد . وكل جواب متقارب فى المعنى خاصة فى العلوم الاجتماعية ولكن واحد منها هو الصحيح . فيكون المسؤول حائراً بين هذه الاجوبة المتشابهة والملتبسة عليه . ولايدرى الصواب منها ، اذا لم يدر كيف يعالج المشكلة وكيف يستعمل المنهج الصحيح لنشدان ماهو الحق فيها .

فان القاعدة الاولى الاصولية فى نظرية المعرفة أن يعرف الانسان أين وكيف يجد المنهج الصحيح الموصل الى المطلوب ومصدر معرفة المنهج والطريق . فالقرآن الكريم يعطينا اول قاعدة فى وجدان المنهج الأقوم ويخبرنا بمكانه .

القواعد والأصول للوصول الى الحق والصواب فى منهج القرآن

القاعدة الأولى فى معرفة مصدر المنهج :

واذا وقعت أمثال تلك الاحتمالات فى الامور الاجتماعية فينبغى على الانسان أن يقوم بالفحص والبحث عن كل واحد ثم المقارنة بينها ثم يأتى عمل الترجيح . وان وقوع الاحتمالات فى الشؤون الاجتماعية كثيرة لان أسبابها كثيرة غير منضبطة كما فى الشؤون الطبيعية . ولذلك يحتاج الانسان الى منهج يجب عليه استخدامه حتى يجد الجواب الصحيح منها . لانه لاشك أن واحداً منها هو الحق والصواب وهنا يأتى القرآن ويسعف الانسان بارشاده الى مصدر المعرفة فى المنهج وهو قوله :

,,ان هذا القرآن يهدى للّتى هى أقوم ،، (١١) .

أثرالإنتهاج فى تفكير الانسان

فان الآية تشير الى أن فى الحياة طرياً متنوعة واساليب وألواناً مختلفة جذابة تلتبس على الانسان ويتشابه بعضها البعض ، كأن كل واحد منها طريق مستقيم يدل ويهدى الى النتيجة المرغوبة . ولكن الانسان لايدرى أيّها اكثر استقامة من الأخرى . ففى هذه الحالة يأتى القرآن ليرشد الانسان وينقذه من الحيرة ، ويدل على ماهو أقوم فيها ، ولايضل اذا اتبع منهج القرآن العلمى دون انحياز .

وهذه هى القاعدة العامة للمؤمن بالقرآن وغير المؤمن به ، يستفيد منها كلاهما على السواء ومن يتبع منهج القرآن فى اى عمل من أعماله يصل بغيته فى ذلک العمل دون شک .

يقول القرآن نفسه بأنه هدى للناس من يتبعه يجد سبيله وطريقه فيما اتبعه لأنه قانون خالق الكائنات الشامل على الكون كله بما فيه الانسان فلا مانع أن يجرب الانسان ذلک فان الآية الكريمة **,,ان هذا القرآن يهدى للّتى هى اقوم ،،** على اطلاقها هى من أوجز الآيات لإرشاد الانسان واعطاء الحرية له مع مسؤوليتها بحيث يهتدى الى ماهو اقوم واصح واصلح وانفع له فى كل أموره وشؤونه الدينية والدنيوية . فعلى هذا الاساس اذا قصر الانسان فى علمه اولا ، وفى عمله ثانياً ولم يتعلم كما ينبغى له ولم يعمل بموجب علمه ولم يبذل جهده فى ذلک ، وارتدى ثياب الكسل والتوانى وتأخر فى تنفيذ ماوصل اليه من المعرفة الواجبة عليه ، يكون مسؤولاً عند الله تعالى وعند مجتمعه لأن علمه وعمله سينفعانه وغيره من الناس . لان المجتمع زوده بامكانات التعلم ولانه مسؤول عن نفسه وعن الآخرين فى الانتفاع لنفسه وللآخرين . والانسان الفاهم للقرآن سيطبق مافيه من التوصيات فان هذه الآية المذكورة تهدى الى شيئين اساسيين :

الأول :

هو العلم والمعرفة بأشياء واحتمالات كثيرة فى مسئلة واحدة حتى يمكن المقارنة والمقايسة بينها ليجد من بينها ما هو ليس بقويم وبين ماهو قويم وبين ماهو اقوم ومن دون معرفة تلک لايعرف هل اصاب ماهو اقوم ام لا ؟

الثانى :

ان يتمسک بالأقوم ويرجحه على الامور الاخرى ويعزم على فعله وانفاذه ، وهو دستور فى العلم والعمل وهو أساس وأصل ومنهج صحيح

فى الحياة . اذا نظر الانسان من خلال هذه الآية الى الامور فسوف يرى ماتشمله من المعانى فى انحاء وانواع الحركات والسكنات الارادية والاجتماعية والفردية . وتحفز هذه الآية الكريمة الانسان العاقل الى التفكير السليم ، اذا اراد أن يقوم بعمل او يوقّع على ورق او يلقى درساً وما الى ذلک من الامور والافعال ، او اراد ان يستريح ليجمع قواه وشمله ، فيجب عليه ان ينظر متى ؟ واين ؟ يعمل ذلک او لايعمل . هذا هو النظام للانسان الذى ينظم ويرتب اموره وشؤونه على نظام وحساب لئلايفوته وقت فارغ ويصبح فيه غير مبال وغيرمهتم .

من قديم الزمان الى يومنا هذا ومنذ عصر صدور الاسلام الى جيلنا مازال اهل العلم والمعرفة واولو الالباب يقولون : ان القرآن الكريم فيه اصول وأسس ومبادئ وقواعد عامة وشاملة على ماوقع وعلى ماسيقع الى يوم القيامة ، وترک التفرعات والتطبيقات الجزئية لفهم الانسان وادراكه لها حسب شروط الحياة وظروف المجتمع هو فيها . وهذا هو القول الحق .

من دون ذلک لايكتب للاسلام الدوام والابدية . وقد عمل به السلف الصالح من هذه الأمة الخيرة حسب زمانهم ومكانهم على مستوى العلم والثقافة الموجودة والمتهيئة لهم فى مجتمعهم . وينبغى على الخلف الصالح ان يتبع الاصول والمبادئ والمناهج القرآنية نفسها ليسيروا على النهج الصحيح والهدى القويم ويغترفوا من دلوهم النقى ويكونوا خير خلف لخير سلف ، لا كما قال المشركون :

,,بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ،، (١٢) دون بحث هل كانوا على الحق حقيقة ام لا ؟ .

وهذه الآية ترفض الاقتداء بمن سبق من الآباء والاجداد والمعلمين المربين ، واتباع أقوالهم وأدلتهم دون فحص وتمحيص من

جديد . ويحتاج المسلمون ايضا ان يختبروا نهج آبائهم هل كان صحيحاً ام لا ؟ ولكن هذا الاختبار يلزم ان يبنى على اسس القرآن مباشرة دون انحياز ودون استناد الى ما اقامه الآباء من الادلة . وعلى المسلمين ان يختبروا الأدلة قبل اختبار الاقوال المستندة اليها . وهذا لايعنى ردها ، اذا كانت صحيحة تأكدوا من صحتها واذا لم تكن صحيحة صححوها . وهذا هو المنهج الصحيح للبحث عن الحق والصواب مجرداً عن الافكار المسبقة . وهذا هو السر فى الدعوة الى الرجوع الى القرآن الكريم فى كل مرة من جديد .

اذا راجع الانسان القرآن الكريم ، يرى انه لايدع الانسان هملا يعيش على جهد الآخرين علماً وعملاً ولو كانوا آباءهم ، ولايترك له مجالاً للكسل والتوانى ، والقرآن يعطى للانسان الحركة والنشاط ويطلب منه السعى والجدّ فى كل وقت ومكان .

العناية بفهم القرآن :

وكلمة ,,أقوم،، وان كانت كلمة عربية أصيلة . ولكنها ومعناها دستور إلهى يحث بها وبأمثالها القرآن الكريم الناس على ان يتمسكوا ويعتصموا به ، كما يرى وهو قانون الهى ومنهج ربانى ليس خاصاً بالمؤمن به ، وانما هو عام يعمل بموجبه المؤمن به وغير المؤمن به من دون معرفته . لانه سنة الهية ينفذ حكمها على كل واحد ومجتمع بشرى، وكذلک فان من يقوم بالعمل به يفوز وينجح كما نرى اليوم بأعيننا ونسمع بآذاننا ، ونقرأ من الأخبار عن الناس الآخرين .

اذا كان لاينجح المؤمنون فى أعمالهم الدنيوية والأخروية معاً ، لأن من دون الاعمال الدنيوية لاتصلح الاعمال الأخروية ، كلها تجرى وتنفذ فى الدنيا ولايفوزون بمطالبهم ، فحينئذ ينبغى عليهم ان يسألوا انفسهم لماذا ؟ وفيما ذا يقصرون ، واين يخطئون ؟ فان طرح الذنب

والفشل على عاتق الآخرين واتهامهم بالتعويق لاينجى المسلمين من المسؤولية ولاينفعهم ايضاً .

نعود ونكرر ان النهج القرآنى عام وشامل للبشر دون التفات ونظر الى دين الناس واقوامهم والوانهم . فان الله عزوجل ارسل القرآن موازياً ومحاذياً لقوانينه الالٰهية الشاملة على المخلوقات والكائنات الحية وغير الحية . والقرآن مثلها ، وهو قانون من القوانين الالٰهية وسنة من سنن الله الكونية والاجتماعية والروحية . ويقدم القرآن الكريم منهجه ليكون متبعا من قبل الناس كلهم فى كل افعالهم وسلوكهم فى حرفهم ومهنهم وليلهم ونهارهم وعلى هذا الاساس يقول قوله هذا مرشداً وهادياً الناس ليسلكوا الطريق الاقوم ويسيروا على المنهج الصحيح كى يأخذوا ويعملوا به . وهناك كتب ، منها مايدل على مادون القويم ، وماليس بقويم ، ومنها مايدل على القويم ، والقرآن الكريم هو الذى يهدى فقط الى الأقوم ويدل عليه .

وهذه دعوى القرآن . ألا ينبغى على المؤمنين به على اقل تقدير أن يجربوه ؟ واذا كان كذلك فيجب على من يريد ان يجد الأقوم ويصل اليه أن يقرأ القرآن يجد فيه الهدى ويهتدى بهديه وهو منهجه .

القواعد المتبعة فى البحث

القاعدة الثانية : فى المنهج للبحث عن معرفة الصواب والحق :

,,فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ،، (١٣) .

هذه الآية الكريمة تقدم للبشر المنهج العلمى فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية معاً وهى تشمل الاصول الآتية :

(أ) الأصل الأول :

الذين يستمعون : الدقة فى البحث والمفاهيم وادراك المسألة بصورة واضحة الاستماع للفهم والانتباه للادراك . هذه الافادة

الوجيزة العامة والشاملة تعبر عن الناس الذين يصغون الى مايقال لهم اصغاءً تاماً ويسمعون قصداً ويقصدون بالسماع الاستفادة لأن الذى يقصد الاصغاء ويعزم على السماع هو الذى يريد أن يعرف ويفهم مايسمع ليستفيد . وهذا لايمكن الا اذا كان السماع بحسن النية وبقصد الاستفادة . لان هناك فرقاً بين الاستماع والسمع . والسمع يكون قصداً وبغير قصد يعنى مصادفة ، والاستماع لايكون الا بقصد وجهد وسعى للوصول الى الفهم والادراك .

(ب) الأصل الثانى : القول :

جمع المعلومات والعينات ، ومايمكن من الأقوال والآراء المحتملة فان القول فى الآية بمعنى جميع الأقوال ، والأفكار الممكنة والآراء المحتملة لأن القول يأتى بمعنى الرأى والاعتقاد والفكر والاخبار والتعبير والافادة ومايدل على الافعال . وهنا يفيد الجمع بمعنى الاقوال والآراء والافعال ، لان اللالف واللام للجنس وهو يفيد العموم بمعنى كل قول ورأى اى الآراء والاقوال . ويؤيد هذا المعنى لفظ ,,أحسنه،، لانه اسم تفضيل لايستعمل الا لشيئين على الاقل فصاعداً . والمعنى يصير هكذا . الذين يريدون ان يستفيدوا من الاقوال والآراء فينبغى عليهم ان يسمعوها بنية حسنة صادقة ومخلصة للفهم وادراك المعنى عما يقال ويعرض على الانسان .

ويفيد القول اى الاقوال هنا بمعنى جمع المعلومات فى موضوع ومسئلة واحدة والاطلاع عليه وبدون ذلك لايتحقق القول بمعنى الاقوال ليختار احسنه . وكذلك يقصد بالقول مصدر المعلومات اذا كانت تستند الى تجارب واختبارات ومعرفة تجارب الآخرين .

واما اذا كانت تستند الى تجربة الشخص نفسه ، والمسئلة تتطلب من الشخص نفسه ان يحقق الموضوع . فالقول يدل على العينات التى تجرى التجربة عليها .

وحينئذ ينبغى على الباحث والعالم أن يجرب ويختبر كل عينة محتملة ان تدخل فى الموضوع حتى بهذه الصورة يستطيع ان يستمع وان يرى نتيجة كل عينة مختبرة لانها مصدر معرفة له ويصل الى نتيجة مطلوبة ومنشودة اكثر صواباً واقرب الى الحق واليقين ، لانه يمكن له المقارنة والمقايسة بين اشياء ممكنة الحصول عليه بصورة واسعة . وهو استقراء واستقصاء فى جمع المعلومات . كلما كان الاستحصاء وجمع المعلومات اتم يقدر أن يجد الاحسن بين الاشياء الكثيرة ويقل خطأه ويقترب من الصواب اكثر أمنا . هنا له الحرية فى جمع المعلومات والعينات وتتدخل ارادته .

(ج) **الأصل الثالث** : فيتبعون : انجاز النتيجة وانفاذها

العلم يوجب العمل والتنفيذ . لان المؤمن بالقرآن يعرف يقينا انه اذا علم شيئاً يجب عليه ان يقوم به . وهذا بدوره يوجب عليه ان يتعلم قبل ذلک والعلم قبل القول والاعتقاد والعلم ضرورة وواجب لانه بدون العلم لايعلم ماذا يقصد او كيف يعمل ؟

فالاتباع هو العمل ويتعلم اولا ثم يطبقه ويتبع ماتعلمه وهنا يأتى العمل ايضاً بموجب العلم الذى وصل اليه الانسان بحسن استماعه الى اقوال الآخرين وحسن تجربته الشخصية على عينات متعددة بعيداً عن الضغط والتأثيرات المادية والمعنوية الظاهرة والباطنة ومتجرداً عن التعصب لفكر او لقول معين . فحينئذ سجل عليه اتباع وانفاذ ما وصل اليه والعمل بما تعلم

وعرف من النتائج العلمية المدروسة . وهنا يحتاج الى حرية فكرية وعملية اكثر للاتباع بحرية .

(د) **الاصل الرابع** : احسنه : الانتقاء والاختيار

فهذه الكلمة ,,احسنه،، فى الآية الكريمة تعطينا معنى المقارنة والمقايسة بين الاشياء الكثيرة المختلفة فى العلم والقيمة ودرجات بين الآراء والاقوال والاعتقادات والمعلومات التى حصل عليه من الآخرين او بنفسه ومحاكمتها والتفكير فيها لترجيح الاحسن من بينها . ومن دون النظر والتفكير فيها ومقايسة بعضها مع بعض لايمكن الحكم وتمييز السيئ والقبيح منها .

وبين الحسن وبين الاحسن منها . لان فى الأقوال والآراء والاختبارات ماهو سيئ وماهو حسن وماهو احسن . والمأمور به هو ان يختار الانسان ويرجح ماهو الاحسن وماصعبه حينئذ فيجب على الانسان المؤمن ان يبحث عن الاحسن ولايكتفى بالحسن ، حتى اذا لم يصب الاحسن فيما بحث عنه فيصيب على الاقل الحسن من بينها ولايقع فى السيئى والخطأ منه الا نادراً ولذلك لكلمة ,,احسنه،، معنى دقيق وشامل يستند إلى مقايسة ومحاكمة بصورة حيادية ويوصل التحكيم الى النتيجة المنشودة. واذا أخطأ الانسان المحايد المحب للحق والباحث عنه لوجه الله تعالى فى نشدان الحق فله اجر واحد ، اذا لم يقصر فى شروط البحث حسب مقدرته المادية والذهنية .

(هـ) **الاصل الخامس** : حرية الانسان ومسؤوليته

فان الآية بجملتها تدل على حرية الانسان ، لانه مأمور ان يقوم بالعلم والعمل بنفسه ليكون الانسان حراً ومستحقاً لتبشير الله

تعالـى بالآية فينبغـى ان يكون حراً فى التفكيـر وسالمـاً عن التأثيرات الذهنية العقلية والمادية ، ومع ذلک ينبغى على الناس الذين يحبون ان يصلوا الى هذا التبشير أن يستعملوا أذهانهم وعقولهم لفهم الآراء والأفكار والقيام بالتجارب والوصول الى النتائج العلمية والاستفادة منهـا بصـورة حيـادية دون انحيـاز وانحراف تحت ضغط الناس وتأثيـر التقاليـد والآراء المسـبقة منجذبين اليها انجذاباً يضعهم فى ريب وشک مما وصلوا اليه من النتائج العلمية .

فان الانسان الذى يسمع قولاً او فكراً ثم يُخضع هذا القول لما عنده من الافكار والاعتقادات والتقاليد المتحكمة فيه ويؤولـه حسب فكرة الثابت والسابق له فهو لايعتبر ممن استمع القول وقصد الاستفادة منه ولا كان له حسن النية والتعلم والـدراسة والبحث عن الحق والصواب ولايدخل فى المبشرين فى الآية المذكورة ، لانه لم يُعمل عقله مستقلاً وانما كان تبعاً . والآية تمدح ارباب العقول المفكرة المستقلة الحرة .

والمنهج العلمى الصحيح كذلک يرفض الاعتمـاد الكلـى والجزئى على العادات والتقاليد وحكمة السابقين الغير الممحصة وتفسيراتهم وآراء اصحاب السلطة من اى نوع كان ويفرض على الباحث الفحص الدقيق والتفصى المنظم والملاحظة الموضوعية النزيهة والتفكير المنطقى السليم (١٤) .

(و) **الاصل السادس** : عمومية : منهج القرآن

اذا انعم الانسان النظر وتفكر فى معنى الآية يجده عاماً وشاملاً على المنهج فى كل شىء، فى الامور العقلية والتجربية والعلمية سواء فى الاعتقادات او الاعمال والعلـوم الـطبيعية او العلـوم

الاجتماعية ومـا يشتمل عليه هذه العلوم التى يكتسبها الانسان علما ويقوم بها عملاً . ومثل هذه القواعد العامة اذا عرضت على الناس فانهم يتراؤون فى اول الامر وكأنهم استحسنوها وقبلوها، ولكن بعد هنيهة من الزمن وبعد رجوعهـم الـى ماعندهـم من المعلومات المترسبة فى أذهانهم والأفكار المتقبلة عندهم سابقاً وما استندت اليه من مصالح ومنافع شخصية وفردية او اجتماعية يندفعون الى الرفض والانكار ويبدأون بأسئلة محرجة وتقديـم اعتراضات ليؤدوا مايجب عليهم فى جحد هذه الاشياء الجديدة عليهم وانكارها .

(ز) **الاصل السابع** : المعيار والميزان :

اذا كان من الواجب على الانسان ان يسعى ويبذل جهده ليجد احسن الاقوال واحسن الاعمال وهذا ماتدل عليه الآية ، ولكن على اى اساس سوف يقيس الانسان الاشياء ويقارن بعضها مع بعض ويزنها ليتحقق الشيء الحسن او الشيء الاحسن ، وكيف سيحكم على الشيء بانه حسن او احسن او قبيح . وكيف يقوّم الشيءالموجود امامه وتحت يده بالحسن والقبح ، اذا لم يكن عنده اصل واساس يستند إليه مسبقا فى اول الامر ؟

اذا كان المعترض او السائل يريد بذلک أنه هو وحده فقط يستطيع ان يقوّم الاشياء ويحكم عليها بالقبح او الحسن او الأحسن على ماثبت عنده وتعود عليه من المقاييس والموازين من أئمته واساتذته او من مدرسته وبيئته سابقاً ، فلا جواب له ، لانه يريد ان يتحكم بما حصل عليه من آبائه نسباً وصهراً وعلماً ولكن لايوافق القرآن الكريم لإصداره الاحكام وتقويم الاشياء حسب آرائه المسبقة .

واما اذا كان السائل او المعترض مخلصاً فى اعتراضه وسؤالـه

للوصول الى المـــيزان والمعيار الحق فله ان يطلب زيادة ايضا حتى يطمئن ويكون على يقين بما يعمل والجـواب الصحيـح موجـود فى مضمون الآية وسيأتى ايضاحه فى النتيجة .

القاعدة الثالثة :

الانسلاخ عن الآراء المتقلدة والاعراف الموروثة وتركها جانباً :

ان القرآن الكريم قد انكر ونقد من ادعى من النـاس بأنهـم يتبعون آباءهم واجدادهم وزعموا بذلک انهم على الحـق لمـا عندهم من المقاييس والتقاليد الموروثة والمخالفة لما جاء به القرآن الكريم من الحق ، وارادوا ان لايتركوا ماوجدوا وتعودوا عليه من الاعتقادات والافكار الموروثة والمتركزة فى نفوسهم والمنقولة جيلاً بعد جيل . اليس من المسلمين من يدعى نفس الدعوى ويقول اقوالا مشابهة لاقوالهم التى أنكر عليها القرآن الكريم واعتبرها القرآن جحودا لما أنزل الله .

(أ)واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله، قالوا بل نتبّع ماالفينا عليه آباءنا (١٥).

نزلت فى غيرنا ولم تنزل لاجلنا ولذلک لسنا مخاطبين بهـا . ويؤيد ادعاءه هذا بأنه يتبع القرآن او يتبع من اتبع القرآن الكريم بالحق حسب رأيه ولو بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرناً . وكل من ينتمى وينتسب الى الاسلام من المذاهب والفرق من المتقين والصالحين والمفسدين والطالحين يدعى ذلک ويزعم انه على الحق ويأتى بيان ذلک بآية :

(ب) ,,كل حزب بما لديهم فرحون ،، (١٦) .

يجب على المسلمين ان يسألوه او يسألوا انفسهـم هل يعتبـر ادعاؤه هذا صحيحاً ام يحتاج الى البحث والتحقيق ؟ هل الذى

يدعيه هو الصواب أم فيه انحراف وضلال ؟ لايمكن لنا الحكم اذا اتبعنا القرآن الا بالمنهج القرآنى الذى نحن بصدد شرحه وهو كيفية البحث وطلب الحق . وبقوله تعالى كذلك تثار الشبهة فى تعقل آبائهم والقاء الشك فى هديهم .

(ج) ,, **اولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون** ،، ؟ (١٧) .

لأن القرآن الكريم آخر هداية من الله تعالى للانسان مادامت السمٰوات والارض قائمة والانسان موجودا فيها . وعلى كل مخاطب وعاقل وفاهم وكل من له اهلية لذلك ان يرى نفسه مخاطباً بكل ماجاء به القرآن وان يقيس اعماله واعتقاداته على مافى القرآن من مبادئ واحكام ويزن كل حركاته وأطواره وسكناته على ميزانه ويكيل نفسه بمعياره . فلا يمكن ان يفرق القرآن الكريم ويقول هذا لى آخذه واتمسك به ، وهذا ليس لى وهو لغيرى ، ويكون صاحباً لبعض ومسؤولاً عنه . وفى الحقيقة بعضه له والبعض الآخر عليه . وفى كلتا الحالتين هو مسؤول عن الكل ومخاطب بكل مافيه دون تبعيض وتجزئة . والقرآن كله يخاطب المؤمن .

حينئذ اذا ترك الانسان على تقليد آبائه كيف يمكن له الوصول الى الحق والصواب وكيف يمكن ان يطلب منه الرجوع الى القرآن ؟ ومافائدة ذلك ؟ لان كل انسان له ميل واستعداد تربوياً واجتماعياً وهو تحت تقاليد واعراف البيئة وثقافة المجتمع . وكيف يميز بين من هو على الحق والصراط السوى وبين من هو على الباطل ، اذا لم يكن هناك لفحص المعايير الموجودة معيار آخر واذا سلم المعترض على القاعدة فى عدم اتباع الآباء من دون التفتيش والفحص والبحث عمن هو الحق ومن هو المبطل ؟

فقد سلم المنهج القرآنى على اطلاقه من الاعتراض لانه اذا وضعت المشكلة تحت الاختبار كفى بحثا وتمحيصاً لانه لايعرف ماذا سيحصل من النتيجة . وهذا كاف لاثارة المسئلة وهى خطوة اولى طلبها القرآن ان يخطوها الانسان (١٨) .

القاعدة الرابعة :

منهج التخاطب مع الناس واستعمال اسلوب المسامحة مع المعارضين .

ان القرآن الكريم جاء ليبلغ الناس مايحتاجون اليه فى الحياة من الاحكام والمبادئ والاسس التى من جملتها الايمان بالله عز وجل والاعتقاد بتوحيده الذى عرف فى التاريخ البشرى بالدين الحق والتدين . وللناس سابقات فى الدين والايمان . ولهم تقاليد موروثة وراسخة فى قلوبهم . واذا بدأ القرآن يخاطبهم ، فأول مايبدأ بالكلام عن الدين ، كان الناس يعرضون عن السماع والاستماع . لانهم مشبعون بذلك ولايرغبون فى تغيير دينهم وتقاليدهم كما هو مجرب عليهم فى تاريخ البشر والأديان قديماً وحديثاً . ولايمكن او يصعب جداً ان يجلب انظار الناس والتفاتهم واسماعهم للتخاطب والتعارف اذا خوطبوا بشئ لايرغبون فيه وينفرون منه ولذلك أتى القرآن الكريم بأساليب ومواضيع مختلفة ومتنوعة تهم الانسان فى حياته وفى اطواره و مراحل حياته . فمثلاً فى القرآن الكريم آيات تدل على ايجاد المناسبات مع الناس الآخرين واحداث علاقات للتقرب والاقتراب منهم حتى لاتنقطع ويوجد فرصاً للتخاطب والتعارف والمحادثة مع الآخرين فى مناسبات وفرص جديدة للتبليغ والارشاد ومن جملة تلك :

,,وانا أواياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين ،، (١٩).

وفى هذه الآية يظهر لأول وهلة كأن القرآن تنازل عن دعواه، وهو غير صحيح . اذ اراد القرآن ان يكسب خصمه باسلوب ادبى

منطقى ومنهج علمى . فانه يقول : واحد منا على الخطأ والآخر على الحق وبذلک أظهر لخصمه انه لايريد ان يتغلب عليه ويتبجح بالغلبة . وانما يحب ان يصل الى الحق . وبما اننا اختلفنا فى ماهو الحق وانحصر الاختلاف بيننا على شيئين اثنين وهما الحق والخطأ . وليس هنا احتمال ثالث . فعلى ذلک اذا كان احدنا على الحق والآخر يكون بالضرورة على الخطأ ولكن ليس معيّناً وبيّنا الآن.وهذا اسلوب منطقى قويم . لأن الخصم اذا قبل بان الحق دائر بينهما وليس ثابتاً لجانب واحد معين ، فقد فرح الخصم لان النقاش قد انتهى بصورة لاغالب ولامغلوب . ولكن الخصم قد وقع فى ريب وشک على انه يمكن انه يكون على الخطأ وخصمه يكون على الحق .

وهذه من مناهج التلقين والتبليغ وهى ايقاع الخصم فى شبهة والقاء الشک فى ذهنه وسيتمخض الشک فيه وهو يحتاج الى وقت ، وحينئذ يتركه القرآن ولايصر على النقاش ، بتحية طيبة من عنده ليلتقى معه فى فرصة اخرى . وهكذا منهج القرآن ، يحدث الصداقة والرابطة بين الناس ليتكلم معهم بهدوء وسكينة دون غضب وصياح وتكفير وتضليل وهو يعلم متى واين يستعمل هذه الكلمات . اعتقد ان المسلمين الاول فهموا هذا المنهج وطبقوه ونشروا الاسلام ، ولم يكونوا كالمسلمين اليوم .

القاعدة الخامسة :

ايجاد علاقات مواتية لفطرة الانسان ومتطلباته .

(أ) بدأ القرآن الكريم كما هو معروف بالنزول بأمره ,,اقرأ،، . وليس تحت هذا الامر الجليل الا ارشاد الناس جميعا وحثهم على القراءة وبما ان الانسان مولع بالتعلم والمعرفة بالفطرة كما تنبه اليه الحكماء قديماً، جاء القرآن الكريم يؤيد هذا

الميل الفطرى ويستند عليه ويريد أن ينفذ فى قلوب الناس من منافذ هذه الفطرة ويجرهم الى اشياء اخرى ليستمعوها منه.

ولايجاد الرابطة واحداث العلاقة بين الناس ، استند القرآن الكريم على ميزة من ميزات الفطرة البشرية وهى الرغبة فى المعرفة وحب الزيادة فيها للوصول الى درجات عالية مرموقة بين الناس فى العلم والادراک ليتمايز بعضهم على بعض . وحب التمايز يسبب التنافس وهو بدوره يجعل الانسان يتقدم فى العلم واكتساب الفضائل المعنوية . وهو يتحقق باتصالات مباشرة مع الآخرين لتبادل الآراء والافكار والمعارف بواسطة التعرف والتخاطب والتنادى والتحادث والتجاوب ، سمتها الظرافة والادب والمنطق المنسق فى الكلام والمناظرة. والا كيف يمكن ايصال البلاغ الى الآخرين اذا طردهم فى اول كلمة ولم يستعمل اساليب الجذب الى الاستماع والاصغاء . ومما لاشک فيه ، أنه مالم يكن هنالک اساس وأصل مشترک ومبادئ مشتركة بين الناس ، ايا كانوا ، فلا يمكن لهم ان يتفاهموا ، او ان يسمع احدهم كلام الآخر ليلتقيا فى المعارف والقواعد والمسلمات . وهى موجودة للتفاهم عند الناس قبل نزول القرآن . جاء القرآن يستعملها للتفاهم معهم وهى ليست غريبة عليهم فالقرآن يعتمد على تلک المبادئ بانها اذا استعملها الناس صحيحاً وسالماً كما هى ، سيقبلون دعوته دون شک . لان صاحب القرآن هو خالق هؤلاء الناس وواضع تلک المبادئ فى فطرتهم .

(ب) يعتقد المؤمنون ، بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى وهو خالق الكائنات وخالق الانسان . وهو يعلم ماخلق وهو

اللطيف الخبير . وهو يعلم ماذا يستطيع الانسان ان يعلمه . والله يعتمد على الانسان فى علمه وتجربته الشخصية والاسس والاصول التى يستند عليها ليستفيد منها فى حياته الفردية والاجتماعية عند تفاهمه وتخاطبه مع اخيه الانسان الآخر . وعند ما يخاطب القرآن الناس . اول مايخاطبهم بأشياء عمومية يستفيدون منها فى مصالحهم الظاهرة . ثم يأخذهم تدريجياً الى ماينفعهم ويضرهم من المصالح والمفاسد فى الحياة المادية وثم الى القيم المعنوية والروحية والى المبادئ العقلية وبواسطتها كلها يشاهد آثار الله الكونية وينبهر بعظمة الله وهى سعادته فى الدارين . وهو معنى الاحسان فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم كأنه يرى الله فان لم يكن يراه فان الله تعالى يراه .

(ج) وهذا من غايات القرآن حيث انه لم يأت ليربط الانسان بربه فقط وانما جاء لينظم حياة الانسان مع ربه ومع الناس ومع نفسه . ولذلک فان القرآن مشتمل على القوانين الطبيعية والاجتماعية والعقدية والعملية وغيرها وهو يحتوى على انظمة للبشر كله . وهو يعلم الناس ماينقصهم ومايكملهم لتتكون شخصية انسانية واحدة متكاملة . لان من اصل اسس الاسلام ومن اصل منبعث عن روح الاسلام هو اساس لإنشاء وايجاد شخصية انسانية واحدة متوازنة ومتقومة ومتوازية بين متطلبات حياته الروحية والمعنوية وبين متطلبات حياته المادية . والمعايير والموازين موجودة فى الانسان وهو مفطور عليها ومدرب عليها طوال التاريخ ولكن قد وقع فيها الانحرافات فى الاستعمال والاستخدام جاء القرآن ليصححها ويصلحها لانه ليس بدعا فى المبادئ والاصول .

(د) فان القرآن الكريم بمنهجه هذا ووضعه قاعدة للبحث عن الحق فى مثل هذه الآيات كى يدل الانسان وبالأخص المؤمن به على ان يطبق نفس المنهج وان يقوم هو به عمليا اتباعاً للنهج نفسه وهو مسؤول عن انفاذ وانجاز المنهج واجرائه . ولايجوز له ان يطرح المسؤولية على عاتق من سبقه ولا على عاتق من سيأتى بعده . وكل واحد من الناس ومن المؤمنين مسؤول عن نفسه وليس مسؤولاً عن غيره كما ان غيره ليس مسؤولاً عنه الا ماحدده الشرع . فكل من له عقل فهو مخاطب بهذه الآية وهو مكلف ان يتبع مافيها من القواعد وطرق البحث للوصول الى المطالب الحسنة ، حسب مايقتضيه حاله وفهمه بعقله . واذا كان لايقدر الفهم فعليه ان يسأل اهل الذكر والعلم . ويجب على المؤمن بالقرآن ان يفهمه وان يفهم منهجه ثم ان يتعلم كيف يطبق ذلك المنهج وليس عليه غير ذلك . وينبغى ان لايخاف من الخطأ لانه اذا اخطأ هو فسيصيب الآخرون ويجب عليه ان يكون على علم ومعرفة بما عمله الآخرون حسب نفس الآية ويصحح خطأه بنفسه . وهذا هو حال المؤمن واساس روح القرآن ، حيث لايتجلد ولايتصلب لخطأه ويصبح فى كل وقت وفى كل عمل وفعل له باحثاً عن الحق . وهو منهج القرآن دوماً ودائماً .

واخيراً فان القرآن عند ما خاطب الناس بصورة مطلقة دون قيد أو شرط ، فانه قد أظهر الاعتماد والثقة على فهمهم واعطى المسئولية الكاملة لهم . ونرى انفسنا نحن المثقفين لانعتمد على غيرنا الا ان نأتى بشروط ثم نستند عليها حتى نضطر الآخرين الى مانرغب فى الوصول اليه من النتائج التى نحبها بما عندنا من الأفكار المسبقة .

والقرآن كذلك يرغب فى أن يوصل المخاطبين الى الحق المنشود . ولكن يعطيهم المسؤولية بصورة كاملة حتى يشعروا بثقلها ويعملوا بموجبها وعند ما نشترط لهم شروطاً يرون أن المسؤولية قد وضعت عنهم وخففت . فان هذا يسبب الكسل الذهنى والبدنى وعدم الشعور بالمسؤولية . والله تعالى خلق الانسان وهو يعلم كيف يخاطبه ويعامله . وينبغى على المرشدين الى سبيله أن يتبعوا منهج القرآن وأن يتركوا الناس أحراراً أمام القرآن مجابهة وجها لوجه وهو يرشدهم .

فنرجع الى الآية الكريمة وننظر فيها مرة ثانية . يقول الله عز من قائل : **,,فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه . اولئک الذين هداهم الله واولئک هم اولوا الألباب ،،** .

يامحمد ! بشر عبادى الذين يستمعون ويصغون الى الاقوال والآراء والأعمال ثم يفكرون فيها وينظرون الى ماهو احسن وانفع لهم فيرجحونه ويعملون به دون انحياز للاتباع الى فكرة سابقة ثابتة لرأى شخص معين . وهم الذين قد هداهم الله الى الحق واصبحوا من اهل الحق ومن ارباب العقول الصافية والاذهان الزكية حيث لم يتأثروا بمن سبقهم وبما احاطهم فى البيئة من التقاليد والاعراف والاساتذة .

ونحن المسلمين تركنا هذا المنهج منذ عصر الثالث الهجرى . ولكن ظهر ضرر هجرنا لهذا المنهج العلمى القرآنى فى العصور الأخيرة وفى ايامنا هذه كان ينبغى على اولى الأمر واولى العلم ان يتبعوه ، عندما رأوا الآخرين قد تقدموا فى العلوم والصناعة ، وبدأوا يسيطرون ويتحكمون على البلاد الاسلامية دون هوادة وتؤدة .

وكما رأينا فى هذه الآية وهناک آيات أخرى تدل على المنهج وكيفية استعمال المنهج ، ولكن المسلمين يقرأون وفى الحقيقة يتلفظون كلمات القرآن الكريم دون تدبر وتفكر ولايقفون على معانى الآيات .

النتائج المستفادة

(١) فآية ,,الذين يستمعون القول فيتّبعون احسنه ،، .
تشمل الميزان والمعيار لنشدان الحق . ولاحاجة للبحث عن المعيار والميزان وهما فى مضمون الآية . لأن الانسان الذى يرى اشياءا واقوالا مختلفة وله مسكة من العقل يستطيع ان يرى الفرق بينهما ويميز ماهو حسن ، وما هو ليس بحسن وماهو احسن من بينها . والى ذلک اشار الله تعالى : واولئک هم اولوا الالباب . واما الانسان الذى ليس اهلاً للتمييز فليس مخاطباً ولايدخل فى تبشيرها . والقرآن يطلب من الانسان التفكير الحر الغير المقيد ويعتمد عليه لأنه اذا حققه كفاه وصولا الى الحق .

(٢) فان القرآن الكريم ليس كتاب دين بالمعنى المتعارف عليه، وهو كتاب يخاطب الانسان العاقل والمفكر بأُعلى مستوى علمى وعقلى ويقدم له المبادئ والمعايير بالاضافة الى ماعنده من المبادئ العقلية الفطرية . لأن اصحاب العقول واولى الالباب والرأى هم الذين يدبرون الدولة والمجتمع ، وهم يحتاجون الى مبادئ القرآن واحكامه بمراتب ثلاث لتصرفاتهم الشخصية ولعلاقاتهم الاجتماعية ولتدبيرهم شؤون الدولة ليكون حكمهم اعدل واقوم حتى يقوم نظام العالم ويدوم، يقدم لهم القرآن الكريم ارشادات وتوجيهات عامة وهم يطبقونها على الجزئيات والامور المتغيرة والشروط والاحوال المتطورة .

(٣) أتى القرآن الكريم الى البشرية بمبدئين او منهجين :

الأول : جاء يؤيد المبادئ العقلية ومبادئ وقوانين العلوم المتحصلة عندهم بكسبهم ويعطيها قيمة علمية ويتخذها أسساً للاستناد إليها فى الارشاد والهداية . وبذلک قد اعتبر القرآن الكريم المبادئ العقلية والعلمية مصدراً للمعرفة الصحيحة ، اذا اتبعها الانسان بصورة سليمة دون تأثر بالافكار المتقلدة المسبقة والبيئة وغيرها ,,**ولاتقف ماليس لک به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئک كان عنه مسئولا** ،،

الثانى : اعطاه الاختيار والحرية للانتخاب والانتقاء من بين الاشياء المجربة والمدروسة بشرط ان يكون اكثر نفعاً واحسن جمالاً وأقوم رشُدا .

(٤) مدح واستحسن القرآن الكريم من يتبع المنهج العلمى المعترف به من قبل العلماء المحققين المحايدين اتباعاً حسناً وكاملاً : وهو جمع المعلومات بصورة وافية ، ثم ترتيبها وتنظيمها ومقارنتها بعضها ببعض وثم وجدان ماهو اقوم واحسن من بينها استناداً على ماعند الانسان من المبادئ العقلية والعلمية والاخلاقية دون ميل او تحيز الى مذهب متبع او أيدولوجية معينة ثم اتباع الاحسن وانفاذه فعلاً .

(٥) فينبغى على الانسان أن يأخذ بنظر الاعتبار انه لايجوز له ان يستعمل ويستخدم ، فى اختياره ما هو الاحسن والأقوم من بين الأشياء ، والمعايير ، والموازيين ، السابقة المتوسمة بسمة التحيز والتحزب ؛ وعلى الانسان أن يختبرها ويفحصها اتباعاً لمنطوق الآية : الذين يستمعون الخ . وهو من اصعب

الأمور وادقها . ومن دون ذلک يصعب على الانسان ان يأمن على نفسه من الوقـوع فى الخطـأ . واذا كانـت المعاييـر والموازين غير مفحوصة لايمكن للانسان ان يصل الى نتيجة صحيحة ولاتنتج نتيجة علمية محايدة . والآية المذكورة تعطى بمنطوقها ومفهومها فحص المعايير ايضاً .

(٦) فـان الآيـات : **هل يستـوى الذيـن يعلمـون والذيـن لايعلمون انما يتذكر اولوا الالباب** (٢٠) **,,فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسـنه اولئـک الـذين هداهم الله واولئک هم اولوا الألباب** (٢١) ، وامثالهـا تعطى للانسان الحرية الكاملة لاستعمال مصادر العلم والحصول على معرفة صحيحة وتحمله المسؤولية المطلقة . وانه اذا اتبع هذا المنهج فيعده القرآن الكريم ويعتبره من اصحاب العقـول والفهـوم الذيـن يستحقـون من الجانـب الالهـى المـدح والتبشيـر ويعتبرون من اولى الامر هداة للناس . ولـكن اذا انحـرف الانسان تحت أى تأثير كان ، لايدخل فى زمرة المبشرين بالهداية والعقل والفهم ولو صلى وصام .

(٧) المشكلة الكبرى التى وقع فيها المسلمون سابقاً وحاضراً فى ايامنا هذه فى العالم الاسلامى اجمـع ، وبـدأ العلمـاء والفقهاء يشيرون اليها ويندونها هى الرجوع الى السنة دون فهم وفقه واقفاً على معانى الالفـاظ اللغـوية من الشباب والمثقفين الذين لم يختصوا فى الفقه واصوله ، هذه من ناحية فقه السنة ومن ناحية السند لايميزون بيـن صحيـح السـنة وضعيفها ومعلولها وموضوعها والاطلاع على اختلاف الآراء فيها ، ومن ناحية ثالثة يتجرأون على الفتـوى دون شعـور

بالمسؤولية العلمية ولا الدينية . وعندهم شعور وحساسية طفلانية يبدعون ويضللون وحتى يتهمون الذين وقفوا حياتهم على الفقه واصوله والعلوم الدينية الاخرى ، ومن ناحية رابعة ، يتخذون آية واحدة وحديثاً واحداً فقط ويرفعون راية النجاة ويصيحون من يحب الخلاص فليلتحق بنا وهم غير فاهمين الآية والحديث ولم يدركوا مغزاهما وغايتهما بالمقارنة مع آيات واحاديث اخرى وغير مطلعون على آراء العلماء فيها وهم يقومون بالدعوة الى الدين وهم احوج مايكونون اليها لخروجهم عن الحكمة المطلوبة فيها .

(٨) وقد تبين مما سبق من قولنا وبياننا ، ان الرجوع الى القرآن والسنة هو الاجتهاد والاجتهاد استنباط المعانى والاحكام من النص الشرعى وهو وظيفة العلماء والفقهاء ليس من هو متصف بالجهل المركب ، وهذا لايصلح له الا من حصل على حظ وافر وكاف من العلوم المذكورة وتمهر فيها . واما حفظ بعض المتون المتعلقة بتلك العلوم لايؤهل الانسان للاستنباط والاستخراج . وعلى هذا ينبغى ان يكون العلماء والفقهاء فى الوقت الحاضر وفى كل زمان هم الذين يستنبطون الاحكام ويفقهون النصوص الشرعية حسب الظروف والشروط الحديثة للحياة فى كل مجالاتها مستعينا بالعلوم الحديثة المتعلقة بموضوع المادة ومستنيراً من الفقهاء المحققين السابقين وهذا لايمنع الناس الآخرين من قراءة القرآن والسنة لانفسهم وهو واجب على الكل قراءة او استماعاً . ولكن لايجوز لأى واحد ان يفتى ويدعو الى الدين اذا لم يكن مختصاً بالموضوع مهما بلغ من الدرجة العلمية العالية فى اختصاص آخر . والناس الذين يبدون رأياً فى غير اختصاصاتهم يعتبرون من الناس

البسطاء الذين يعرفون الكتابة والقراءة فقط ، بل دون ذلک لانهم لايقدرون قدرهم ووضعهم وحدهم تجاه الله تعالى وعندما طلب الله تعالى من الناس ان يسألوا اهل الذكر ، قصدا اهل الاختصاص ، بشروطها وضوابطها .

الحاصل

وفى المنهج القرآنى تبيّنّا شيئين :

الأول : الغاية المنشودة وهى الوصول الى الحق و ماهو اقوم واحسن . ويجب على كل شخص ان يتخصص فى فرع من فروع المعرفة وان يسعى فيه وراء الغاية المذكورة ليصل الى الحق .

الثانى : اراءة الطريق وكيفية السير فيه .

وبذلک يريد القرآن من كل شخص ان يفحص كيفية استعمال المعايير والموازين للاحكام والمبادئ من جديد . فلا يسمح القرآن للانسان لان يُلقى الوزر على الأخرى ويسبب اتكال بعضهم على بعض واثّقالهم . فانه يريد من الانسان فعالية مستمرة وحركة دائمة متجددة ، مثل نحل العسل كى لايكسل ولايتوانى . وهذا هو هدف الفلسفة العملية للقرآن الكريم وحيويته الحركية دوماً . واذا فرغ الانسان من عمل فعليه ان يشرع فى آخر دون هوادة وهوان رغبة الى وجه الله تبارک وتعالى .

,,فاذا فرغت فانصب والى ربک فارغب ،،

هوامش

١ ـ البقرة ٢١.
٢ ـ ألنمل ٢ .
٣ ـ البقرة ١٨٥.
٤ ـ المائدة ٤٨.
٥ ـ د. عمر محمد التومى الشيبانى ، منهاج البحث الاجتماعى ، ٥١ طرابلس ٥ ٧ ١٩.
٦ ـ ابو حامد الغزالى ، الاحياء ١/١١٦.
٧ ـ عمر الشيبانى نفس المرجع ٦٠.
٨ ـ فهمى سعيد يعرب ، طرق البحث ١٣ ، ١٩٧٥ ، حسين عبدالحميد احمد رشوان ، العلم والبحث العلمى ، ١٨٠ ، ١٩٨٥.
٩ ـ منطق ارسطو منهج التفكير للعقل المجرد ، واما منهج القرآن فللتفكير والعقل العملى .
١٠ ـ د . عمر الشيبانى ، نفس المرجع ٤٦ .
١١ ـ الاسراء ٩ .
١٢ ـ البقرة ١٧٠ ، المائدة ١٠٤ ، الزخرف ٢٢/٢٣ .
١٣ ـ الزمر ١٨.
١٤ ـ د .عمر التومى الشيبانى ، نفس المرجع ٥٤ .
١٥ ـ البقرة ١٧٠.
١٦ ـ الروم ٣٢.
١٧ ـ البقرة ١٧٠ .
١٨ ـ وقد اوضح الامام الغزالى هذا التقليد الذى يعمى الناس ويعلم بصورة واضحة تأثير التربية من الصغر فى الاقتصاد فى الاعتقاد ١٧٣.
١٩ ـ السبأ ٢٤ .
٢٠ ـ الزمر ، ٩ .
٢١ ـ الزمر ، ١٨ .

●●●

انالله و انا اليه راجعـون

لقد جاءت ضحوة يوم الأضحى فى هذا العام بنعى ذاب له كلّ قلب يمتّ الى علم العربيّة بصلة ـ انتقل الأستاذ الكبير والعالم النحرير الدكتور محمد ضياء الحق الصوفى الى رحمة الله فخلّف فى بيئات باكستان العلمية فراغا لن يُمـلأ .

كان مولد المرحوم فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩١١م بلاهور ـ وكان والده الشيخ اصغر على روحى من كبار العلماء فى شبه القارّة ورث منه ولعا شديدا للعلم وبرع فى اللغة العربية والفارسية والعلوم الاسلامية حتى فاق أقرانه ـ بدأ خدمته فى مصلحة التعليم سنة ١٩٣٧م ، ولم يزل ينشـر اللغة العربية فى معاهد العلم المختلفة ببلدة جنک و ساهيوال حتى تقاعد سنة ١٩٧٠م كرئيس قسم اللغة العربية والعلوم الاسلامية بالكلية الحكومية بلاهور، وخلّف وراءه عددا كبيرا من التلامذة يقوم كثير منهم بتعليم اللغة العربية وآدابها فى أنحاء باكستان ـ

وقد أبدعت براعته عديدا من المقالات والبحـوث العلميّة نشـر بعضها ولم ينشر بعضها الآخر الاّ انّه كان اكبر همّه التدريس ونشر العلم بين تلامذته ـ على أنّه أنفق السنوات العشرين بل أكثر من آخر دهره يبذل جهودا مضنية فى انجاز مشروعه الكبير حول كتاب ,,وفيات الأعيان ،، لابن خلّكان فرتّب فهارس شتّى للآيات القرآنية والأحاديث النبوية وللأعلام والألقاب والكنى وأسماء الأماكن والقبائل والأبيات والأمثال وما الى ذلک ممّا ورد طىّ هذا المصدر الشهير وعمل جدولا للتوافق بيـن الطبعـات المختلفة للكتـاب ودلّ علـى مواضـع الغلط

والتصحيف منها كما تتبّع ما سقط من نصوص الاصل فى الطبعات المتداولة فجمعها من مصادر شتّى ورتّبها ثمّ أشار الى ماسها فيه ابن خلّكان أو وهم الى غير ذلک ممّا يدلّ على غزارة علمه وسعة معرفته ـ وكنّا سألناه فيما مضى أن يعرّف قرّاء مجلتنا المتواضعة بمشروعه هذا فتفضّل مشكورا ونشرت بعض التفاصيل عن هذا المشروع فى العدد الأوّل من المجلة الواحد وعشرون من ,,الدراسات الاسلامية،، (ربيع الثانى ـ جماديان ١٤٠٦ هـ ، يناير ـ مارس ١٩٨٦م) .

وهذا العمل الكبير ، مع الأسف ، لايزال مخطوطا لم ينشر بعد .

تقبّل الله تعالى منه جهده وسعيه فى سبيل لسان أهل الجنة وألحقه بهم فان المرء ـ حسب اخبار المصطفى عليه الصلوة والسلام ـ مع من أحب .

●●●